

تطور الحركة العقلية

في شمال أفريقيا

للكاتب المستشرق جاستون بوتول

نشرت مجلة « الأخبار الأدبية » (النوفيل لتير) في عددها الأخير مقالاً للكاتب المستشرق جاستون بوتول عن الحركة العقلية في شمال أفريقيا هذه ترجمته :

كلما أوغلنا في التاريخ أدركنا أن تونس أو بعبارة أخرى أن تونس - قرطاجنة المقعدة كانت دائماً عقل أفريقيا الشمالية. وإنه لقد غريب : قد رهنه المدينة ، التي كأنها سارية القارة ، والتي هي الحد الفاصل بين شرق البحر الأبيض المتوسط وبين غربه ؛ ولقد كانت دائماً طريق الفتوح العظيمة ، كما كانت مجمع الطرق التجارية الكبرى ؛ وهي أقصى بلد في شمال أفريقيا وأقربها إلى أوروبا ، ولكنها أقربها إلى الشرق أيضاً ؛ ثم هي أعرقها في الطابع الأفريقي ، لأن السهول الصحراوية التي تفصلها عن البحر في الجهات الأخرى حواجز عالية ، تمتد بلا انقطاع إلى تونس ؛ وأخيراً هي المدينة التي كانت تلتقي فيها النزعات العقلية وتنتج من جميع الأنحاء

أنفس الكتب . وابن رشد الجد له كتاب البيان والتحصيل في الفقه ستة عشر مجلداً . وقد ضمن لقارنه الاجتهاد . وابن رشد الحفيد الفيلسوف كان في المغرب بمنزلة الرازي في الشرق

ثم تكلم عن محنة ابن رشد في دولة الموحدين وقال : والبطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان من العلماء ، كان يحفظ كتاب المحلى لابن حزم - سألت بعض الحاضرين عن رسالة صلاح الدين إلى يعقوب بن يوسف فقال هي في كتاب أبي شامة . وكان أبو شامة حافظاً وقارئاً ونحويّاً وعلماً في الأصول والفروع . ويشبه في هذا أبو عمرو الداني . قال بعض الحاضرين هل كانا متماصين ؟ قال لا ، أبو شامة توفي سنة ٦٢٢ والداقي توفي سنة ٤٤٤ . الخ الخ . ولعلنا نعود فندون عنه مجلداً آخر
عبد الرهاب عزام

كانت قرطاجنة في الوقت الذي كانت رومة تصارع فيه ما حولها من الظلمات ، قد قامت رسالة عظيمة في المدينة ، واكتشفت غرب البحر الأبيض والبرتقال وساحل أفريقيا الغربية . ثم غدت قرطاجنة بعد الحروب البونيقية المدينة الثانية في العالم الروماني ؛ ولما أتمت مراحلها الثلاث أعنى البونيقية ، والرومانية ، ثم النصرانية ، دخلت تونس في مرحلتها الاسلامية ، وسرعان ما تفوقت على القيروان وغدت مرة أخرى أهم مراكز الحركة العقلية في المغرب . ولم يكسفها قط بهاء فاس المحدث ، ولبتت تونس هي المركز الذي تزدهر فيه العلوم والفلسفة العربية لآخر مرة ، وكان ابن خلدون ، في فجر الأحياء ، آخر ثمارها العظيمة

أما اليوم فإن الموقف أكثر تقدماً ؛ وعلى رغم ازدهار جامعة الجزائر ، ونجاح معهد الدراسات العالية الراكشي في رباط وتقدمه نحو التحول إلى شبه جامعة ، فإن تونس تبقى مركز التفكير الاسلامي في شمال افريقية . ويمكن لتوضيح خطر هذا الدور أن نقول إن المسلمين يبلغون اليوم في المغرب أكثر من اثني عشر مليوناً ، ولكن لا توجد بقعة أخرى غير تونس يزداد عددهم فيها نحو خمسين ألفاً كل عام

ويرجع هذا النفوذ إلى عاملين : الأول أنه يوجد في تونس أهم وأقدم جامعة عربية ، والثاني أنه يوجد بها أكبر عدد من صفوة المسلمين الذين تلقوا الثقافة الفرنسية . وصحف تونس العربية ، والصحفيون التونسيون هم الذين يوجهون الحركات السياسية والعقلية في الجزائر ومراكش . ومن تونس تخرج الأزياء ، ويخرج القصص والغناء ، وفيها تتألف الفرق التمثيلية أو الموسيقية التي تجوس خلال المغرب

ويضاف إلى نفوذ جامعة الزيتونة القديمة ، التي تأخذ اليوم بأسباب التجديد ، نفوذ « الخلدونية » وهي مركز للدراسات التاريخية والعلمية ؛ وقد أسست منذ ثلاثين عاماً على يد بعض التونسيين ، وكلية الصادق . وهي معهد غريب تدرس فيه العلوم الحديثة واللغتان الفرنسية والعربية . وقد عقد في أكتوبر الماضي مؤتمر من الطلبة المسلمين في شمال افريقية

وفي ذلك ما يوضح الدور الهام الذي تؤديه تونس في المسائل الاجتماعية التي تعرض في شمال افريقية . ومن الميسر أن نحدد

ونستطيع أيضاً أن نقرأ في أمثلة يقدمها لنا الماضي مبلغ التعاون بين المسلمين والنصارى ، فقل مقررة من تونس وقعت الحالة الأولى والوحيدة في العصر الحديث للتعاون بين هؤلاء وأولئك ؛ ومن الغريب أن ممثلي هذه التجربة العظيمة كانوا فرنسيين وتونسيين ؛ ففي مملكة النورمان الصقلية التي يمررها سلالة الفاتحين الأغلبية ، ازدهرت أعظم حضارة في العصر ، واشترك في إنشائها النورمان والمسلمون ، وكانت بالرم يومئذ هي أعظم مجمع بين الشرق والغرب ؛ وكان نجاح هذا التعاون الحر الذي تطاول زهاء قرن ، أشنع فضيحة في العصر ، في نظر التتصيين من الجانبين

وقد استطلعت العبقريّة الفرنسية أن تنسى في العصور الوسطى مجماً شديداً التناقض من حضارتين خصيمتين في كل مكان ؛ واليوم إذ نستعرض ذلك المركز الذي حققته لنا تونس القديمة ، نجد أمامنا جامعة الزيتونة الموقرة — وهي قديمة قدم السوربون — ذات الحنايا الرمزية الجليلة ، تحيط بها جوانيت الكتب والمطوور ؛ ثم نجد مكتبة عظيمة فرنسية على الأخص ، أقيمت في قصر قديم ؛ ثم نجد بعد ذلك فوق مرتفع يشرف على المدينة كلية الصادق الزايدة التي أخرجت نخبة مجتادة من المثقفين العرب ، الذين استقوا أيضاً من الثقافة الفرنسية . وعندئذ تذكر تلك المقدمة التي يهدي فيها الشريف الأدرسي أثره الجغرافي الخالد إلى الملك رجار (روجر) الذي عاش الأدرسي في بلاطه ، والتي تبدو فيها أولاً هذا التعاون الذي قام بينهما هذه كلها أدلة ملاذية على قيام تعاون عقلي واضح تقوم به الصفوة ، وإيه يقع على عاتق المفكرين والجامعة أن يناقوا تلك البيئة التي تتطور فيها عادة الحياة المشتركة ، إلى رغبة في الحياة المشتركة

جاسترمه برنول

(الرسالة) ترجينا هذا المقال ليطلع قارئنا على رأى العلماء الفرنسيين في الحركة العقلية في شمال أفريقيا ؛ ولينا نوافق الأستاذ بوتول على بعض آرائه ، وعلى الأخص في أثر الثقافة للفرنسية في تونس . والمقصود بشمال أفريقيا في هذا المقال هو البلاد الغربية التي تسيطر عليها فرنسا أعني تونس والجزائر والغرب الأقصى . فان من المعلوم أن مصر لا تدخل تحت هذه التسمية ، ولم ينصرف إليها هذا التحيز في أي محضر من المحصرين

زعات الأجيال الفتية في هذه البلاد ؛ ويختلف عند الشباب المثقف وتوزيمه كثيراً في هذه المناطق ؛ وأظهر هذه النزعات وأشدّها تعرضاً للخلافات الظاهرة هي النزعة السياسية ، ولكن هذه الخلافات ترجع دائماً إلى ظروف السياسة المحلية ، فهي مؤقتة في الواقع ، فمثلاً كان التونسيون يشكون من إقصائهم عن بعض الادارات ، فلما تقرر منذ أشهر أن يسمح لهم بدخولها إنتهت هذه الشكوى

أما النتائج الثابتة ، فهي نتائج التطور العقلي ؛ وهي أهمها أيضاً ، لأنها تتعلق بالمستقبل ، ولا تتقدم إلا ببطء ، ولا يمكن تعديلها أو توجيهها بقوانين الشرع . وقد يستطيع الشرع أن ينفذ بعض الفرض السامحة في حرص وحذر ، ولكن الاختيار النهائي يبقى لأصحاب الشأن أنفسهم

ويوجد في قاس ، كما يوجد في الجزائر وقسنطينة شباب يتلصق ويتساءل . وقد عنت التقاليد التي كانت تسمح للشباب بأن يندمجوا في الحياة بسهولة ، وأضحت لا تلائم الحياة الحديثة ، وعرضت حاجات جديدة ومطالب جديدة ؛ ولكن الشعار الجديد هو أن تبحث وتجد . ويتجه معظم الشباب على الأخص بانظارهم إلى تونس ، لأنهم يعرفون أنهم هنالك يتكفون شيئاً قسماً بين الأمل والثيق

ولها ، وعلى الرغم من أن تونس ليست إلا قطعة صغيرة من شمال افريقية ، فإنه يجب أن تتابع عنتهى الاهتمام ما يدور في المجتمع التونسي للعقل ؛ وهو اهتمام يجب أن يقرن بالعرف ، لأن هذا المجتمع هو الذي يحمل أعباء التمسيد وأزمات الضمير ، وما يترتب حتماً على مثل هذا التطور النفسي الهام من أسباب الجزع والاضطراب ؛ ومن هذا المجتمع وحده يمكن أن يأتي حل المسائل الاجتماعية الشائكة التي تعرض للبحث ، وليس من ريب في أن الموقف الذي يتخذه هذا المجتمع يكون ذا أثر قوي في باقي أنحاء البلاد . ونستطيع أن نتكهن بشيء من المستقبل ؛ فقد أتمت الطبقة المتوسطة التونسية إمكان التطور المتناسق في ظل أفق فرنسي ؛ وقد ظهر فيها مجموعة من الكتاب والمؤرخين والعلماء والصحفيين الذين يكتبون بالفرنسية ؛ ويجد حتى في ظروف الأسرة ، وفي الظروف الاجتماعية ، ما يدل على تسرب الحياة الحديثة بقوة ، وهي حركة اختيارية لأنها تسير حرة دون ضغط ما ، ويمد تأمل عميق